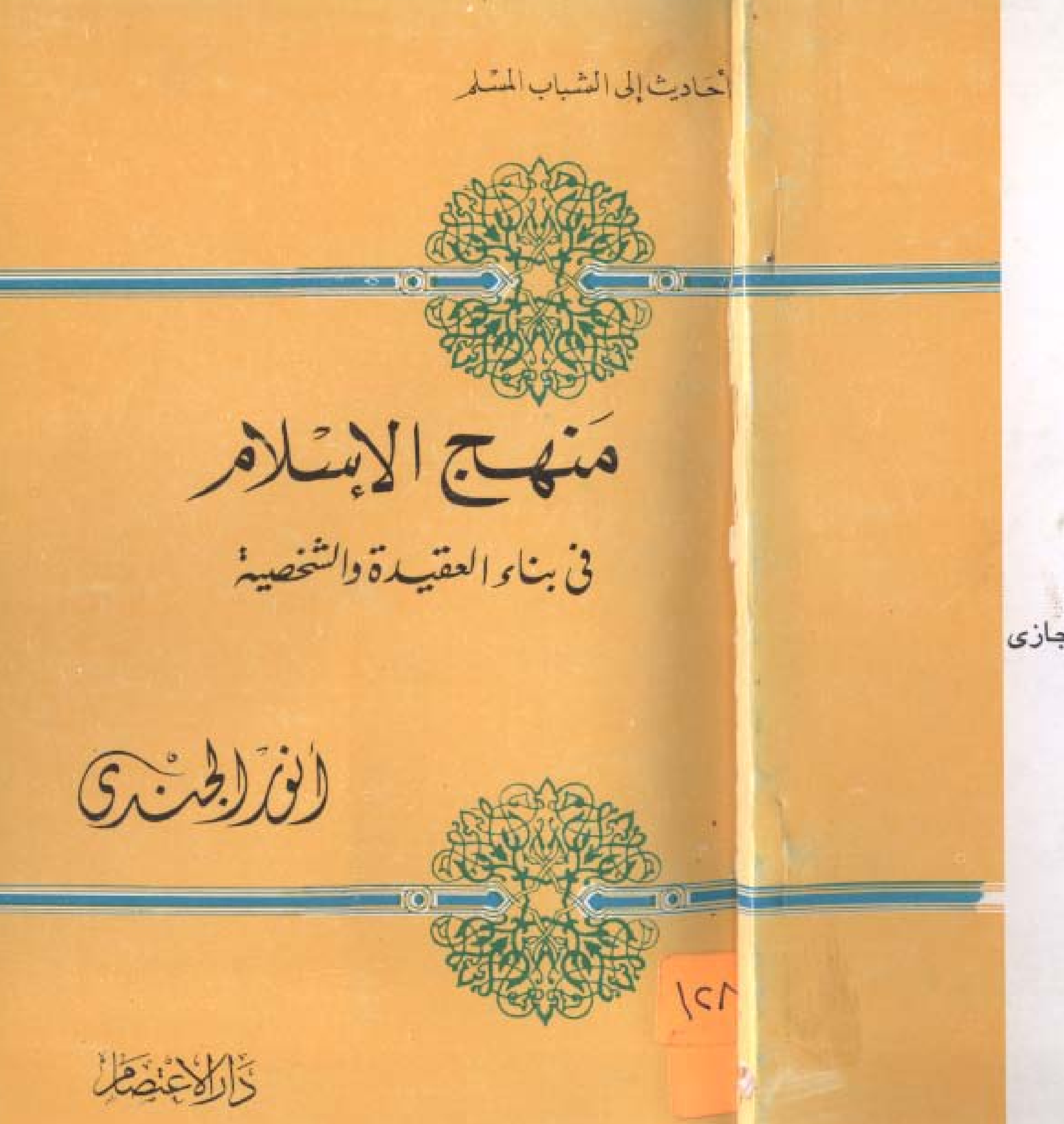


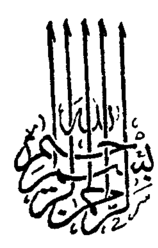
دار الاعتصام

للطبع والنشر والتوزيع

القاهرة ٨ شارع حسين حجازى

تليفون ٣١٧٤٨

٢٠ قرشا



بسم الله الرحمن الرحيم

لا ريب أن أمتنا اليوم وهى تقف موقف الصمود فى وجه العدو ، بكل ما تمثله التحديات الاستعمارية والصهيونية والماركسية من أخطار ، تحتاج الى مزيد من تعميق مفاهيم الاسلام فى قضايا العقيدة والفكر وبناء الشخصية .

فاليوم تواجه أمتنا حملات نفسية ، وفكرية خطيرة تستهدف أول ما تستهدف تدمير مقوماتها الذاتية وشخصيتها العربية الاسلامية وتزييف قيمها ومقوماتها وتحريف أصالتها وصهرها فى بوتقة الأممية والعالمية واخراجها من مزاجها النفسى والاجتماعى .

وقد كشف العدو فى عديد من تصريحاته عن هذا المخطط حاسبا أنه وسيلته الأولى لهدم ارادة الصمود ثم ارادة المواجهة والتأثير فى الصلابة والثبات اللذين يصدران أصلا عن ذلك الميراث الضخم من قوى الايمان والأخلاق ومفاهيم التوحيد والجهاد ، وكلها تستمد معينها من الاسلام الذى أعطى هذه الأمة كل مقومات بقائها وحياتها وأمدها بالقدرة

على مواجهة الأزمات والأحداث بصبر ويقين ، ينتهى بها الى النصر حيث تدور الدائرة على اعدائها وخصومها .

ولقد قابلت أمتنا أزمات وأحداثا ومخاطر وقوى ضخمة ، وصمدت فى مواجهة الأخطار ايمانا منها بقيمها ومفاهيمها ، فكتب لها النصر وتحقق لها أن تستأنف دورها فى البناء ، وتقديم رسالة التوحيد والحق والعدل .

ولذلك فان من حق الشباب المثقف علينا أن نقف معه وقفة نواجه منها تلك السموم الناقعة ، والشبهات العاتية التى يطرحها خصوم المسلمين والعرب ومازالوا يطرحونها فى محاولة لاخراج الاسلام عن مفهومه الأصيل ، أو اخراج المسلمين والعرب عن اطار فكرهم ، وعن مضمون قيمهم ليتحركوا فى دائرة مهومة مضللة ليست من منطلقات فكرهم ، ولا قيمهم وذلك بغية أن يدوروا فى حلقة مفرغة فلا يحققون هدفهم من النصر الأكيد .

ومن الحق أن يقال أن أكبر المهام التى تواجه الباحثين اليوم هى تحرير المسلمين والعرب من الدائرة المقفلة التى يريد عدوهم أن يحبسهم فيها وعليهم أن يلتمسوا منطلق فكرهم وقيمهم وطابع ذاتهم ومزاجهم النفسى الأصيل . وعلى الباحثين أن يكشفوا ما استطاعوا وجه الحقيقة وأن يحرروا النفس العربية الاسلامية من زيف التغريب والغزو الثقافى وتحديات الاستعمار ومخططات الحرب النفسية

جميعا ، وأن يكشفوا تلك الأخطار الزائفة والمذاهب الوثنية والمادية ودحض المفتريات التى تراد بالعرب والمسلمين وفكرهم ومقوماتهم .

ولا ريب أننا فى حاجة الى أن نقدم للشباب المثقف هذه الحقائق الأساسية كمنطلق للحديث عن أمور ثلاثة هى : بناء العقيدة ، بناء الفكر ، بناء الشخصية .

أما هذه الحقائق فتتمثل فى الأصول الآتية :

ان المفهوم الاسلامى قد تكامل تكاملا كليا قبل أن يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وقبل الاتصال بالفلسفات اليونانية وغيرها بوقت طويل ، وان فهم المسلمين الأول للاسلام فهما صحيحا عميقا قد أعطى الجماعة الاسلامية الأولى شحنة دافقة من القوة والايمان والتضحية دفعت المسلمين الى الأمام مائة عام كاملة ، ولقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولا يزال وسيظل النموذج الأسمى والمثل الأعلى القائم أمام كل المصلحين والمجاهدين والنوابغ ، والقدوة الأساسية التى رسمت كل صور البطولة والتضحية والجهاد .

وان الاسلام لم يلبث حين ضعف المسلمون ، وفى مواجهة أكبر خطرين هما الحروب الصليبية وغزوات التتار ، أن دخل

أرضا جديدة فى جنوب شرق آسيا وفى افريقيا وافتتح قلوبا جديدة فأضاف الى معتنقيه أضعاف أصحابه الأصليين .

ولقد كان — ولا يزال — من أبرز قوانين الاسلام ونواميسه التى لم تتخلف : قدرته الفائقة على تجديد نفسه وعلى اعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر ، أو أصابته دخائل تحوله عن جوهره وأنه كان دائما « كيانا » حيا قادرا على الحياة والتجدد ، مستطيعا كلما أصيب بعطب أن يعلو على جراحه ويواصل رسالته . ويكشف التاريخ هذه الحقيقة عن قدرة الاسلام الرائعة على التوسع والتكيف مع المجتمعات والناس والأقطار .

ومنذ ظهر الاسلام وكل حدث فى العالم مرتبط به على نحو من الأنحاء ، ومنذ انتشر الاسلام الى اليوم لم تتغلب عليه نحلة وان تقلب فى عديد من المحن والشدائد .

ولقد حرر الاسلام العقل وحث على النظر فى الكون ورفع قدر العلم ، واستطاع أن يواجه موجة المادية الطاغية .

والاسلام ليس دينا للمسلمين وحدهم ولكنه روح الفكر والثقافة والتاريخ فى العالم الاسلامى كله .

وأعظم ما فى الاسلام ، تلك الظاهرة التى تميزت

عن سائر النظم وهى قدرته البارعة فى التوفيق التام بين الروح والمادة والقلب والعقل والدين والدنيا واقامة منهج الحضارة على أساس الأخلاق ، وبناء العلم على أساس الضمير .

ولقد التفت الى هذا المعنى كثير من الباحثين الغربيين ، وأشار بعضهم الى هذا حين قال : ان الاسلام هو أسمى سائر الأنظمة الحديثة لأنه يشمل الحياة بأسرها ، وأنه يهتم اهتماما على درجة واحدة بالدنيا والآخرة ، والنفس والجسد ، والفرد والمجتمع . ويقول « جرونيباوم » فى كتابه عن الاسلام : ان الاسلام نظام دنيوى أخروى ، فى آن واحد ، لا ينفصل فيه الدين عن الدنيا ولا المجتمع عن الشريعة ، ويقول « برتراند راسل » فى كتابه الثقافة والنظام الاجتماعى : ان الاسلام دين موجه للجماعة يتوغل فى حياة الفرد والمجموع توغلا كليا ، ويقول « أرنولد توينبى » : ان عقيدة التوحيد التى جاء بها الاسلام هى أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم وان فى بقاء الاسلام أمل العالم كله .

وأكد كثير من الباحثين أن التوحيد المطلق هو علامة الاسلام بين الأديان وأنه لم يدع كما دعت بعض الأديان الى الزهد فى الدنيا والانصراف عن ملذاتها والاقبال على الآخرة ، ولكنه جمع بين الدين والدنيا ، وجعل ذلك كله فى سياج من الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية فهو يقرر : أن الفرد أساس المجتمع ولبنة من لبنات الأمم . وأنه قد حال

بيسره ودعوته الى الجمع بين الدنيـــا والآخرة دون وقوع التناقض بين المثل العليا وبين الحياة العملية فربط الايمان بالعمل ، وربط العلم بالممارسة العملية .

والاسلام ينكر عبادة الجسد وتقديس الشهوة وعبادة الأبطال ويرى أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والأخلاق حضارة زائفة .

يقول « اميل درمنجم » ان حضارة الاسلام لا تحتقر الأمور الدنيوية ولكنها ترمى الى مثل أعلى رفيع بين الدين والدنيا يباعد بين النفعية والرهبانية على السواء .

ويقول « هاملتون جب » ان الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، انه مدنية كاملة .

ومن هنا فان الحيـــاة الاجتماعية فى العالم الاسلامى لا تستطيع أن تنفصل أو تنعزل عن روح الاسلام السارية فيها فكرا وثقافة ولغة وتاريخا وتراثا .

أولا : خصائص الاســـلام

ودعائم الاســـلام تقوم على : عقـــائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق .

وتتمثل قيم الاســـلام فى التوحيد والشورى والحرية والعدل الاجتماعى وكرامة المرأة ، والتقدم والعلم والاجتهاد فى اطار الطابع الانسانى وهدم التفرقة العنصرية .

واهم ما فى الاسلام هو : التطابق بين الكلمة والسلوك ، وتحويل المعرفة الى عمل : والانتقال من علم « الاســـلام » الى عمل « الايمان » .

وقد اكتملت مفاهيم الاسلام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولم تنقص شيئا ، أو تزد شيئا ، وكل ما جاء من بعد كان تفسيرا لها وتوسيعا ، من خلال باب الاجتهاد الذى حقق مقدرة الاسلام على تطوير المجتمعات ولم يكن اتصال الفكر الاسلامى بالثقافات الأجنبية مضيفا اليها شيئا فى أسسها أو قيمها الأصلية .

ولقد كان الاجتهاد دعوة الى فتح الطريق لتأكيد تعاليم الاسلام فى الالتقاء بالمجتمعات المختلفة ، وايجاد الحلول لكل قضية تجد للناس مع تغير الزمن واختلاف البيئات مع المحافظة على القيم الثابتة الأصلية .

ان أبرز مفاهيم الاسلام أنه لا انفصال بين الدين والحياة ، بين الدنيا والآخرة ، بين الروح والجسم ، بين الواقع والمثال ، فالاسلام يرفض تمزيق الجبهة الفكرية بين العناصر المختلفة .

ويؤكد التقاء كل الأنشطة فى اتجاه واحد قوامه : « وحدة النفس البشرية » .

وبذلك يقضى على كثير من الأخطار التى تواجه الفكر العالمى المضاد ، وأزمات النفس الانسانية ، ذلك أن هذا التمزق الفكرى هو أساس أزمة الانسان الحديث ، ولا ريب أن أزمة القلق التى يعانيها المثقف المسلم اليوم انما تعود الى أصل واحد ، ومصدر واحد ، هو أن ذلك الانسان قد ترك مقوماته الأساسية وقيمه فى نفس الوقت الذى أخذ يواجه فيه النظريات الجديدة والمذاهب العالمية ، ولو أنه التقى بالفكر الاسلامى وهو مسلح بقيمه ومقيم على قاعدته لما وقع مثل هذا التمزق ، ولما واجه مثل هذه الأزمة التى توصف بالضياع .

ولعل أبرز مقومات الفكر الاسلامى الأساسية هى تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان وتأصيل القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل ابان التحدى ، وذلك حتى فى أشد فترات الضعف ، هذا بالاضافة الى القدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمنا على مدى التاريخ كله : هذه القدرة القائمة على ايمان أصيل .

١ ــ التوحيد

طابع الاسلام هو « التوحيد » : فهو لبابه ومنهجه وقوامه والقاسم المشترك على قيمه المختلفة والعامل الأساسى الذى يفصل بين الاسلام وبين عديد من المذاهب والفلسفات والعقائد ، التى تقوم على أساس الوثنية أو الالحاد أو تعدد الآلهة أو انكار الخالق .

وليس التوحيد حديثا على الانسانية كما يدعى بعض علماء مقارنة الأديان من دعاة الصهيونية العالمية والماسونية الذين يحرفون الكلم .

فالانسانية موحدة منذ نشأة آدم عليه السلام الذى القى اليه ربه التوحيد ومفهوم الاله الواحد ، والتوحيد هو دين الله الحق المنزل على جميع الأنبياء والرسل وهو الدعوة الحقة التى حملها جميع الأنبياء الى أممهم

حتى انتهت الى صورتها المثلى فى الاسـلام خاتم الديانات والرسالات الى العالمين جميعا ، وقد اكدت جميع الوثائق والحفريات كذب الادعاء بأن البشرية كانت وثنية ثم اهتدت الى التوحيد من بعد ، فالحقيقة التى لا شك فيها أن الناس كانوا أمة واحدة وانهم كانوا على التوحيد جميعا ثم ضل فريق منهم حين عبدوا عديدا من الآلهة وتحولوا بعد التوحيد الى الوثنية . وقد اشار « أرنست رينان » الى هذا المعنى حين قال : ان العـرب موحـدون بطبعهم وأن دياناتهم هى ديانات التوحيد ، ولقد كانت الديانات السماوية جميعا على التوحيد فانحرف بعضـها ودخل فى فلسفات اليونان والهنود والفرس ، مما حولها عن طبيعتها .

ومن هنا كانت دعوة الاسلام الحارة المتجددة الى انكار الرموز أو تقديس الموتى أو عبادة الأبطال والعظماء أو اقامة القبور الضخمة أو التماثيل أو غيرها من الدواعى التى انحرفت بالبشرية عن التوحيد من قبل ، وذلك حرصا على بقاء المفهوم الأصيل الذى نزل به القرآن .

ولقد كان التوحيـد ولا يزال فيصـلا ضخما وخطيرا بين الاسلام وبين مفاهيم الفلسفات والمذاهب وما ينسب الى الأديان المختلفة على نحو يحرر النفس الانسانية من كل وثنية وعبودية .

والتوحيد فى مفهومه الأصيل هو أن يتقى الانسان ربه فى كل أعماله ولا يرى سوى الله وحده سيدا وهدفا فليس غيره من يخشى أو اليه يلتجىء أو يستند فاذا عرف الانسان مفهوم التوحيد معرفة كاملة دفعه ذلك الى الصدق والخير والشجاعة فلا يرى غير الله ولا يخشى سواه .

ومن هـذا المفهوم نفسه يقوم كيان الفكر الاسلامى فى مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصـادية . ذلك أن مفهوم التوحيد فى الاسـلام انما يرسم دائرة كاملة للمجتمع والفكر الانسانى كله قوامها سيادة الانسان للكون تحت حكم الله والتقاء القيم الروحية بالقيم المادية ، وارتباط القلب بالعقل ، والدنيا بالآخرة .

وتعطى عقيدة التوحيد للمسلم اعلاء لذاته فلا خضوع الا لله سبحانه ، فلا يعبد الأفراد ولا الأبطال ولا الرؤساء ولا الصالحين ولا الأولياء ويقدر الناس بأعمالهم لا بأحسابهم ولا مكانتهم المادية ولا أصولهم ولا أنسابهم .

والتوحيـد هو الذى يقرر المفهوم المطلق الذى يفتح الباب بين الانسان والله سبحانه على مصراعيه بغير واسطة أو وصاية .

* * *

٢ ـ الحــرية

والحرية فى مفهوم الاسلام أن لا يصبح الانسان عبدا لشهواته أو عبدا لغير الله ، وقد حفظ الاسلام كرامة الانسان وأعلاها عن أن تخضع لسلطان غير الخالق ويأنف من أن يكون الانسان عبدا للانسان وحرص الاسلام على تجريد الانسان من كل عبودية للعباد أو الخضوع لغير الله لا فرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير والأسود والأبيض .

كما فرق بين حرية السلوك وتنظيم السلوك .

وليست مقومات الخلق وضوابطه قيودا بقدر ما هى وسائل حماية وتوسط بين طرفى الجمود والاسراف .

ومفهوم الاسلام للحرية هو أعلى مفاهيم الحرية حيث تتحرر النفس الانسانية والعقــل الانسانى من قيود الوثنية وعبادة الفرد والعبودية لغير الله : الاله الواحد ، وقد ألقى مفهوم الحرية والاسلام أمام الانسانية الضوء الصادق فحرر النفس الانسانية من كل قيود العبودية : عبودية الهــوى والنفس ، وخلصها من عبادة غير الله .

فالحرية فى مفهوم الاسلام ضد العبودية والرق والوثنية والظلم ، وهى حرية الفرد والمجتمع جميعا ، ليست حرية المجتمع على حساب الفرد و لاحرية الفرد المتاز على حساب

المجتمع والجماهير ، وهى حرية الفــكر المنطلق فى طريق الحق ، الى الاجتهاد والابداع والتجديد ، له أجر اذا أخطأ وأجران اذا أصاب ، وهى حرية المتدين حيث « لا اكراه » .

والحرية فى الاسلام بمعناها الشامل القائم على حماية حريات الآخرين وعلى تقدير التبعة الى جوار تقدير الحرية .

والاسلام ينعى على الذين يستخدمون الحرية من أجل الغرض الخاص ، أو الغايات الفردية ، وينعى على الذين يتبعون الراى من غير أن يعرفوا أدلته ووجه الحق فيه ويأخذ عليهم أن يتمسكوا بالباطل متى استبان لهم .

والاسلام هو اول من دعا الى الحرية بمعنى التحرر من قيد الجهل والخرافة والتقليد فى فهم الظواهر والأحداث .

« ولقد كان الاسلام ولا يزال عاملا أساسيا فى كل حركات التحــرر التى قامت بهــا الشــعوب فى عصرنا وان النضالات الوطنية جميعا التى انطلقت تحت راية الجهاد فى سبيل الوطن كان الاسلام فى هذه النضالات رمزا المقاومة الروحية والثقافية ضد الاحتلال والاستعمار »(١) .

---

(١) من بحث لروجيه جارودى .

٣ ــ الأخــلاق

ويشكل الاسلام منهجا انسانيا متكاملا للفرد والجماعة قوامه : « العقيدة والشريعة والأخلاق » والأخلاق فى مفهوم الاسلام قاسم مشترك على مختلف القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية .

ومفهوم الأخلاق فى الفــكر الاسلامى يختلف اختــلافا واضحا وجذريا عن مفهومه فى الأديان والفلسفات الأخرى ، فهو يقوم على هذا النحو المترابط المتكامل الشامل . وهدف الأخلاق فى مفهوم الاسلام هو : « التقوى » .

وتتمثل التقوى فيــه عمــلا وسلوكا ، ولا تقف عند الناحية النظرية وحدها ، والأخلاق الاسلامية أخلاق تقوى بكل ما تحمل كلمة التقوى من معان سلبية وايجابية بتجنب الحرام والاقبال على الحــلال ، وتعنى التقوى : الوقاية ومدافعة الخطر واليقظة الدائمة للمحافظــة على الأصول ومنعها من الانحراف .

والأخلاق الاسلامية أخلاق تطبيق وليست أخلاقا نظرية ومن هنا يخطىء الذين يعتبرون الأخلاق فى الفكر الاسلامى امتدادا للأخلاق فى الفكر والفلسفات السابقة له أو للفكر اليونانى خاصة ، وقد أخطأ المستشرقون الذين ألفوا فى الأخلاق

وعجزوا عن فهم هذه الفروق الواضحة بين الأخلاق الاسلامية والأخلاق اليونانية وغيرها .

وفى الحق أن الأخلاق الاسلامية المستمدة من الكتاب والسنة هى أخــلاق ايجابيــة تقوم على رقابة الله وتقواه فى مختلف التصرفات وتدخل كعنصر أساسى فى المجتمــع والاقتصاد والسياسة والتربية ولا تنفصل عنها وتستمد كيانها من التوحيد أساسا فلا تنعزل عن الاســلام بل ترتبط به وهى أخلاق تقوى اجتماعية تحمل طابع الايثار والتضحية بجزء من عطاء الله للفرد لمصلحة المجتمع وهى أخلاق قوة وعمل مع المحافظة على رقابة الله واعلاء الخير والبر والوفاء .

٤ ــ البطولة : وعظمة الرسول

ومفهوم البطولة فى الاسلام مختلف عن مفهومها فى غيره من المجتمعات والثقــافات المختلفــة . ويجمع الاســلام بين النظريتين الاجتماعية والفردية ، فالباطل يأتى نتيجة حاجة المجتمع اليه ثم هو يصنع المجتمع آنفا .

والبطولة فى الاسلام تتمثل فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم رسولا من لدن ربه فهو الذى أخرجته الجزيرة العربية ثم هو الذى أخرج الجزيرة العربية من الظلمات الى النور ، وغيرها وغير العالم كله ، وهداها الى مفهوم التوحيد الحق ، باذن ربه ووحيه .

ولقد كانت البطولة العربية قبل الاسلام بطولة الكرم والشجاعة والنجدة ، فاحتفظ لهـــا الاسلام بهذه القيم بعد أن غير مدلولاتها وبواعثها فلم يعد الكرم من أجل المفاخرة به ، أو النجدة من أجل المباهاة بها ، أو الشجاعة من أجل الظهور بل أصبح هذا كله من أجل التماس مرضاة الله .

ومن ثم فقد نقاها الاســـلام من زيف الفخر والمباهاة وحررها من التوجه الى غير الله .

ولقد كان مفهوم الاســـلام فى تكريم البطولة بعيـــدا عن الأحجار ، فقـــد كرم الاسلام عمل العاملين ولم يكرم الأفراد لذواتهم وبذلك سما بالقيم العملية وحال بين الأبطال وبين التقديس أو عبادة الأبطال الذى عرفته الأمم الأخرى .

فالفكر الاسلامى لا يخلد لبطل لحمه ودمه ، أو يصنعه من الحجر الجرانيت وانما يخلد عمله ذكره ، وكذلك فهم المسلمون أن البطولة ليست فى الفرد ذاته وانما فى عمله فاذا اختار الرسول الرفيق الأعلى فعلى الرسالة أن تبقى وتستمر ومن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، وقد عزل عمر خالدا عن القيادة فى أوج النصر خيفة أن يفتن الناس به وليعلموا أن الله هو صانع البطولة والأبطال .

والبطل المسلم يلتمس بعمله وجه الله ولا ينسب لنفسه

شيئا من الفخر والمباهاة ، وقصة صاحب النقب معروفة ذائعـــة .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة رائعة للبطولة وجعلها دائما فى مواجهة المسلمين ، لتكون العبرة قريبة الى نفوسهم وكان أبطال القرآن أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ولا يخافون غير الله .

ولقد كان البطل دوما فى مفهوم الاسلام « استجابة » لحاجة الأمة والمجتمع ، ينبعث فى وقت الأزمة ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه الى مرحلة جديدة على ذروة موجة من موجات التقدم .

٥ ــ الرســـول

أما سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله فانه قبل أن يكون بطل الأبطال وأعظم العظماء فهو النبى المؤيد بالوحى الجامع بين الانسانية والنبوة **(قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى)** .

ولذلك فان نسبته الى العبقرية أو البطولة أو الزعامة أو غيرها من الصفات والأسماء انما هى اخراج للنبى من أبرز معانى الايمان به وهى النبوة والاصطفاء والوحى الذى يربط بين السماء والأرض .

ومحاولة تصوير عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى سطور قليلة هى محاولة صعبة فهو المثل الأعلى المسلمين وهو التطبيق العملى للقرآن فقد كان خلقه القرآن وهو الانسان الكامل المؤيد بالوحى ، الصادق المصدوق ، الذى اختارته العرب ليفصل بينهم وحكموه قبل أن يصطفى لرسالة ربه فى أمر الحجر الأسود وقالوا : هذا الأمين رضينا ، والذى وصفه ربه فقال : **« وانك لعلى خلق عظيم »** .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو النموذج الاسلامى للبطل وكانت صورته دائما وتجربته وعمله موضع القدوة والتمثل ، طوال فترات التاريخ الاسلامى ومراحله ، وما تزال وستظل موضع القدوة .

فهو الذى اذا اشتد البأس اتقى الناس به فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، وهو الذى وجده الناس عائدا من مصدر الصوت على فرس عرى عندما خرجوا يلتمسون الخبر ، وهو الذى وقف فى حنين كالطود بعد أن تفرق أنصاره على اثر هجمة مفاجئة من العدو ينادى الناس : « الى الى » وهو الذى كان يفرق دائما بين موقفه فى الغار ولا قوة معه ، ويلتمس نصر الله وموقفه فى « بدر » ومعه القوة يدعو فى وجل من أن يكله الله الى الأسباب ويلتمس نصر الله مجردا وهو البطل الذى لم تذله الأحداث والقائد الذى لم يهزم قط ، وقد ربى خلال ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة جيلا من القادة

المغاوير كونهم على البطولة والتضحية والايمان فاندفعوا بعد الهجرة يحققون كلمة الله ويكتبون صفحة بارعة من المجد .

وهو محمد بن عبد الله « اليتيم » الذى ما كاد يشب عن الطوق حتى رعى الغنم واشتغل بالتجارة وعزف عن مجتمع مكة وتطلع الى دين ابراهيم واتجه الى ربه فكان يقصد غار حراء يتعبد على مفهوم الحنفاء حتى جاءه الوحى على رأس الأربعين فاجتباه الله واصطفاه لحمل خاتم الرسالات وأنزل عليه خاتم الكتب السماوية فكان خاتم الأنبياء والرسل جميعا .

ولقد أمضى أقسى أعوامه فى مكة يدعو قومه ويواجه الخصومة والعناد والمكر ، ويلقى وحفنة أصحابه أشد العنت ، وما آمن معه الا قليل ، ولقد صمد لكل ما جربته قريش من وسائل القهر والاعنات ومن الوعد والوعيد دون أن ينالوا منه شيئا وعندما أراد عمه أبو طالب أن يختبر أمره قال قولته الفاصلة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » ، وأخرجه أهل مكة فهاجر وصحابته الى يثرب .

وفى المدينة أسس مجتمع الاسلام وأقام أمة المسلمين وفى خلال عشر سنوات من الهجرة بايعت الجزيرة العربية

وانقادت ودخل مكة ظافرا فاستقبله أهلهـا ترجف قلوبهم فعفا عنهم وقال كلمته الخالدة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولما دانت له الجزيرة وأقام المجتمع الاسلامى أتم الله كلمته وختم به رسالته وكانت حياته نورا وهدى للمسلمين ولم تبرح ، وملاذا لكل قائد وبطل ومفكر ومؤمن ، ففيها المثل العليا والعبرة البالغة على الصبر والايمان والخلق والكرامة والقوة والحياء .

وهذه شهادة رجل غير مسلم فى النبى تلقى ضوءا كاشفا :

يقول توماس كارليل فى كتابه الأبطال :

« انى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، لم يكن متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، أخرج الله به العرب من الظلمات الى النور ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب ، وعم ضوءه الأرجاء ولطالما قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالحطب ، ان كلمة لا اله الا الله لترن فى آناء الليل وأطراف النهار فى تلك الملايين الكثيفة » .

* * *

٦ ــ الفكر الاسلامى

ان بناء الفكر الاسلامى فى اطار الاسلام وعلى قواعده الأساسية من وحدانية الله وسيادة الانسان فى هذا الكون تحت حكم الله وفى ظله ، انما يمثل جوهر الأيدلوجية التى لم تتوقف طوال تاريخ الاسلام والتى لا يستطيع العرب والمسلمون أن يخرجوا عنها .

فالفكر الاسلامى يمثل النظرة المتكاملة فى الأبعاد الثلاثة التى قرر علماء الانسانية أنه لابد من توافرها لتكوين حقيقة انسانية تجمع الأبعاد الروحية والمادية والعقلية ، روحها العلم والخلق .

والفكر الاسلامى يتميز بأنه مركب وأن كل القيم عناصر ، علاقتها به هى علاقة الجزء بالكل ، ولا سبيل الى فهم عنصر من عناصر الفكر الاسلامى على حدة ، بل لابد أن تكون العناصر كلها مترابطة متشابكة .

والثقافة العربية هى وليد الفكر الاسلامى .

وتتميز كما يتميز الفكر الاسلامى بذاتية خالصة ، واضحة ، صريحة تختلف كل الاختلاف عن طوابع الثقافات الأخرى .

ولقد أثبت الفكر الاسلامى صلابته واستقلاله وقدرته على البقاء ، فانه فى أكثر من أزمة ، حالت مقوماته الأصيلة بينه وبين السقوط ، وظل محتفظا بذاتيته فى مواجهة الغزو .

والفكر الاسلامى فكر تجريدى ولكنه يصدر من منطلق الواقع والحيـــاة .

يقول الفيلسوف المسلم محمد اقبال : المسلم لم يخلق ليندفع فى التيار ويساير الركب البشرى حيث سار ، بل خلق لتوجيه العالم والمجتمع والمدنية .

وأبرز ما يتسم به الفكر الاسلامى أصالة نظرية المعرفة عنده ، فقد وضع القرآن أساس المعرفة واستوعب فيها أساليب العقل والذوق والتجربة وجعـــل منها كلا متكاملا غير قابل للتمزق . فتقوم نظرية المعرفة فى القرآن على أساس الكم والكيف والروح والمادة والغاية والسبب ، اذ ربط القرآن بين الحواس والعقل والوجدان ، « كما وضع أهم القواعد التى تحفظ العقل من الزيغ وهو عدم تجاوز الحد ، والايمان بأن الغيب فوق طاقة العقل وقدرته كما دعا الى التقدير والتقرير ، وعدم التعجل فى الحصول على النتائج ، قبل استكمال البحث والموازنة والاستقراء ودعا الى التخصص قبل البحث وعدم المكابرة والعناد ، ودعا الى المراجعـــة والمعاودة ، كما دعا الى الاستمساك بالحق والبعد عن الغرور والجهر بالحق والدفاع عنه » .

٧ — المعرفة والعقيدة

ويفرق المفهوم الاسلامى بين المعرفـــة والعقيدة ، فالمعرفة تتمثل فى الثقافة العامة ، والعالمية المشاعة للناس جميعا والتى تمثل التعرف على أنواع المعـــارف المنثورة فى الثقافات المتعددة وهذه تختلف اختلافا واضحا عن العقائد التى تتصل بأمة بذاتها والتى تتشكل من خلال تراث وقيم وتاريخ ودين وهى تختلف اختلافا واضحا فى كل أمة عن الأمة الأخرى ، وتختلف بين أمم الشرق والغرب ، وتختلف بين المسلمين وبين غير المسلمين ، وبين الشرق والغرب ، وقد تشكلت الأمم منذ قديم من خلال عقائدها وقيمها ولغاتها ومفاهيمها على نحو جعل لكل منها طابعها المتميز .

ولقد قامت أمم فى الشرق على المفهوم الروحى الخالص وقامت أمم فى الغرب على المفهوم المادى الخالص ، أما الأمة الاسلامية فهى تتميز بالتراث التوحيـــدى الخالص القـــائم على منهج متكامل من العقل والوحى ، ومن الروح والمادة ، ومن العلم والدين ، ومن الدنيا والآخرة .

ومن هنا فقد كان من الضرورى لأمتنا وهى مفتوحة النوافذ للمعارف المختلفة أن تكون على ايمان واحد بعقيدتها التى تحكم النظرة الى كل أمورها ، فهى دائما على وعى بالتفرقة الواضحة بين المعارف والعقائد .

٨ — منهج العلم التجريبى

ومن هذا المنطلق انشأ العلماء المسلمون : المنهج العلمى التجريبى ، وهو منهج اسلامى اصيل من ثمرات الحضارة الاسلامية وهو يتخطى المنطق الأرسطى ، القائم على القياس ويتجاوزه ، فقد انشأ الاســـلام منهجا يعبر عن خصائص حضارته وفكره ، هو المنهج التجريبى ، وليس ذلك غريبا فقد جعل الاسلام طلب العلم فريضة ودعا القرآن الى النظر فى الكون .

وعلى سبيل الحق وليس على ســبيل التجاوز نرى القرآن مصدر العلوم جميعا ، علوم الدنيا وعلوم الآخرة ، وربما شك البعض فى أن القرآن مصدر علوم الدنيا كالفلك والطب والهندسة والرياضيات ومن هنا لابد من ان نقول :

ان القــرآن هو الذى انشـــأ المنهج العلمى التجريبى الذى هو أساس الحضارة الحديثة وان دعوة الله سبحانه وتعالى للمسلمين فى القرآن : **((قل انظروا ماذا فى السموات والأرض))** (ســورة يونس ١٠١) كانت فتحا لهم دفعهم الى دخول هذا المجال .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك عن انفسنا ، ولكن هم الأوربيون انفسهم ، فى شهادات كثيرة اقدمها شهادة جوستاف

لوبون فى كتابه ((حضارة العرب)) وأقربها شهادة الدكتورة سجريد هونكة فى كتابها ((شمس الله تشرق على الغرب)) وهذه واحدة من هذه الشهادات ، سجلها بريفولت فى كتابه ((بناء الانسانية)) ، يقول : ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى يمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة ، فان هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون فى تلك الطاقة التى تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة ، ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا :

((انه يدين لها بوجوده نفسه)) .

ويقول ((برتراند راسل)) : ان العرب كانوا أميل الى التجريب من الاغريق وخاصة فى الكيمياء ، ويقول الدكتور عمر فروخ وهو من المتخصصين :

((ان المسلمين قــد قلبوا العــلم اليونانى والفلسفة اليونانية رأسا على عقب ، فقد كانت معرفة اليونان بالنجوم خرافات فى الأكثر ، ومحــالات فى الأقــل ، وكان منقولا من المصريين والبابليين ، فقد استطاع الفكر الاسلامى أن يجعل من النظر الى النجوم علما صحيحا وأنكر خرافاته)) .

وأبرز المفاهيم فى هذا الصدد : أن قيم الاسلام لم تكن

حائلة ولن تكون دون التقدم العلمى بل كانت مصدرا من مصادره فقد جمع الاسلام وهو ما تفرد به بين حرية الفكر واستقامة الدين .

٩ — حضارة الاسلام

وعلى قاعدة العلم والأخلاق اقام الاسلام حضارته الباذخة . يقول ليوبولد فابس (محمد اسد) : « انفردت حضارة الاسلام وحدها بانبجاسها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار ، وقد جمعت فى فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكملة شاملة فقامت فى مجتمع واضح المعالم له نظرته الخاصة الى الحياة وله نظامه التشريعى الكامل وله منهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع ، كانت هذه الحضارة وليدة حدث تاريخى فريد هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها الى رجل فذ فى التاريخ هو محمد رسول الله ، وقد جاء الاسلام نظاما شاملا للحياة قد افتتح حقا حضارة جديدة » .

وعندنا أن القرآن الكريم قد حمل بذور الحضارة حين دعا الى العلم والعقل والبرهان وهو ما حقق مقام « المنهج التجريبى الاسلامى » : حجر الزاوية فى بناء الحضارة البشرية الراهنة .

وقد رسمت حضارة الاسلام منهجا ثابتا قوامه النظرة

الانسانية وطابع التوحيد والعدل والاخاء ، وتميزت بتلك النظرة الشاملة الى الأخلاق والدين ، وذلك المنهاج الاجتماعى المتميز ولم تستطع المؤثرات الطارئة أن تغير من خصائص الاسلام فيها .

وقد اتسمت الحضارة الاسلامية بالسماحة والانسانية والعالمية فقد حرصت على توفير الحرية لغير المسلمين واحترمت شعائرهم وفتحت أمامهم أبواب المناصب وأعطت المرأة حقها وحريتها ، وربطت بين الروح والمادة وربطت العلم بالدين والسياسة بالأخلاق ، وقد تميزت بطوابع عدة اهمها : أنها رفضت ما خالف التوحيد ، وحافظت على مقوماتها الأساسية وكرمت العقل وشرفت العلم ولم تنس التكامل بين العقل والوجدان .

وقد قدم المسلمون فى مجال الحضارة اضافات بعيدة المدى فى مجال العلوم الكيمائية والطبيعية ، كما اضافوا فى مجال العلوم الانسانية وكذا فى الطب والفلك والصيدلة والملاحة والجغرافيا وفى علوم البحار والصوت والضوء وفى الأرقام والحساب وفى الجبر وفى المراصد وآلات الاسطرلاب وصناعة الورق ، ففى الطب عرفوا طبيعة كثير من الأمراض كالجدرى والحصبة واستعملوا الأمصال فى معالجة بعض الأمراض ووصفوا تشريح الجسم الانسانى وصفا دقيقا ، وعرفوا العقاقير فسجل ابن البيطار الف عقار لم تعرفها اليونان وقد اكتشفها

العرب وجددوا منافعها ومضارها . والف أبو القاسم الزهراوى كتابه فى الطب والجراحة فى عشرين مجلدا ، وأطباء الاسلام هم أول من فتت الحصى فى المثانة وسدوا الشرايين النازفة وكتبوا فى الجذام والحصبة والجدرى وعدوى الطاعون واستعملوا المرقد (البنج) فى العمليات الجراحية والأطباء المسلمون هم أول من كشف النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما كما صحح الأطباء العرب آراء بقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء .

وعرف الفكر الاسلامى التطعيم ضد الجدرى واستخدم الأطباء المسلمون عفن البنسلين وعيش الغراب كمراهم ، أما طب العيون فهو من صناعة العرب وقد ظلت تذكرة العيون العربية تستخدم حتى القرن التاسع عشر وقد احتل المسلمون المركز الأول فى مجال الطب فترة تزيد عن خمسمائة عام .

وفى المجالات الأخرى نجد اضافات باهرة ، فقد اخترع المسلمون الساعة الدقاقة والزوالية واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام وعرفوا تركيب النار اليونانية واستخرجوا قوة البارود الدافعة واستعملوا الآلات القاصفة وأتقنوا فن تسقية الفولاذ وهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة ، واكتشفوا الابرة المغناطيسية التى انتقلت الى أوربا فى القرن الثانى عشر ونقلوا القمح الأحمر ومشاتل النخيل .

وهم الذين وضعوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات

وبسطوا علم الحساب الاغريقى ونقلوا القطن الى الأندلس وكانت علوم المسلمين فى الجغرافيا والفلك هى صاحبة الفضل الأكبر فى الكشف عن الأمريكتين .

كما كان للفكر الاسلامى اضافاته البارزة فى مجال العلوم الانسانية : (الاجتماعية ، والسياسية والاقتصادية) .

فقد قدم ابن حزم نظرية المعرفة الاسلامية وقال : ان المعرفة تتكون بشهادة الحواس وبأول العقل (أى بالضرورة) وبالعقل من غير استعمال الحواس وببرهان راجع من قرب أو بعد الى شهادة الحواس وبذلك حل ابن حزم أعظم مشكلة فى تاريخ نظرية المعرفة ، هذه المشكلة التى جاء مؤرخو الفلسفة الحديثة فأخذوها غنيمة باردة ، كما أنشأ الامام الغزالى (علم النفس الاسلامى) حين قرر أن السلوك الانسانى يقوم على شهوة الطعام تمتد الى سائر الشهوات .

أما ابن خلدون فقدم لعلماء البشرية سبقا حاسما حين وضع أساس علوم ثلاثة هى : التاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسى ، أما ابن مسكويه فقرر نظرية التطور قبل داروين ، ووضع المفكرون المسلمون أسس النظرية الاقتصادية العصرية قبل أن يعرفها الفكر الأوربى بألف عام على الأقل ، وأعلن

ابن رشد وحدة العقل البشرى ، وقدم الامام الشافعى نظرية التعايش السلمى وتوصل الشاطبى الى نظرية التعسف فى استعمال الحقوق ، وسبق أبو العلاء — دانتى الى كتابة الكوميديات الالهية ، وسبق الطرطوشي ميكافيلى فى وضع اسس السياسة فى كتابه الأمير وأثر البخارى وعلماء الحديث فى بناء منهج التاريخ الأوربى الحديث وبعد وفاة البخارى بحوالى عشرة قرون بدأت فكرة تحديد منهج للتاريخ تظهر فى أوربا ونقله الشرقيون على انه أمر جديد وهو مأخوذ أساسا من منهج المحدثين المسلمين وشيخهم البخارى .

وسبق الفكر الاسلامى علماء الغرب فى مجال كتابة المكفوفين التى عرفت بالحروف البارزة فقد عرف العلماء المسلمون هذه الطريقة وسجلها على بن أحمد بن يوسف وسجل الباحثون أن الفارابى سبق (أنشتين) الى بعض النظريات فى نطاق نظرية النسبية وأن الغزالى سبق (هربرت سبنسر) فى تخطيط الدولة والمدينة وقارن بين كل منهما وبين جسم الانسان .

وقد حدث كل هذا وسجله علماء أوربا اليوم واعترفوا به ، أما المسلمون فما زالت مناهجهم التعليمية والجامعية لا تشير الى هذا السبق ، وكان أولى بهم أن يسجلوه فى مجال دراسات علم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية جميعا .

* * *

١٠ — اللغة العربية

ولقد كانت اللغة العربية من أبرز مقومات الفكر الاسلامى والحضارة العربية ، وقد كان سر عظمة اللغة العربية على التاريخ المتصل هو ارتباطها بالقرآن .

فاللغة العربية هى لغة العرب ولغة الاسلام نفسه ، فهى تمثل فكر الشرق الاسلامى بكل ما فيها ، ولا ريب أن الاسلام أساس من مقومات الفكر عند الأتراك والفرس والأفغان والباكستان والملاويين .

وقد كانت معجزة القرآن أنه جمع الأمم التى تتكلم العربية فى أسرة واحدة ، وقد عرفت اللغة العربية بغناها الذى لا حد له : يقول الخليل بن أحمد فى كتاب العين : ان عدد أبنية كلام العرب ١٢ مليون و ٣٠٥ ألف و٤١٢ كلمة ، ويقول الحسن الزبيدى : ان ما يستعمل من ألفاظها لا يزيد عن ٥٦٢٠ لفظا ، وعندما نزل القرآن أزاحت العربية السريانية ، والكلدانية ، والنبطية ، والأرامية ، واليونانية ، والقبطية قبل أن ينقضى قرن واحد ، فلما بلغت القرن الثالث الهجرى تحولت الصلوات فى الكنائس اليها ، ثم كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأوردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والابجية والساحلية ، كما كتب بها لغة أهل الملايو وقد حدث هذا من ألف عام .

ثم دخلت الى اللغــات الأوربية كالفرنسية والألمانية والانجليزية ، وفى اللغة الانجليزية وحدها اكثر من الف كلمة عربية .

واللغة العربية من الناحية العلمية تفوق أضخم اللغات ثروة وأصواتا ، ولقد كتب جول فيرن الروائى المشهور قصة خيالية عن قوم شقوا فى أعماق الأرض طريقا الى جوفها فلما خرجوا سجلوا أسماءهم باللغة العربية فلما سئل فى ذلك قال : اعتقد أنها لغة المستقبل .

وللغة العربية دلالات واضحة : فان كلمة الوفاء منها تشغل من لسان العرب أربع صفحات كاملة من الجزء العشرين ، بينما لا توجد كلمة الوفاء فى بعض اللغات أصلا .

يقول عمر بن الخطاب : ان اللغة العربية تثبت العقل وتزيد فى المروءة لأنها لغة أمة استغنت بالأخلاق فى بداوتها عن القوانين ، والأنظمة المكتوبة .

ويجمع الباحثون على انه ما من فن أو علم او معنى من شعر أو نثر يتحدث فيه الناس فى ادب من الآداب الا وله ضريب فى اللغة العربية ، وقد جمع أحد الباحثين مائة وثمانين صورة من المقابلات بين الأدب العربى والآداب الأوربية بينما وجد بضعة وثلاثين صورة فى الأدب العربى لا ضريب لها فى الآداب الأخرى .

ويقول (بول كراوس) : لا لغة عربية بدون القرآن .

ويسجل (سيدلو) ان اللغة العــربية حافظت على صفائها بفضل القرآن .

ويقول ارنست رينان :

« ان من أعجب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، لقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء ذى بدء فبدأت فجأة فى غاية الكمال ، سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كامله بحيث لم يدخل عليها منذ يومها ذلك اى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة .

ظهرت الأول أمرها تامة محكمة ، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى ، ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بكثير مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال الى درجة أنها لم تتغير أى تغير يذكر ، حتى انه لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة .

ويقول العلامة مصطفى صادق الرافعى : « ان العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم وقد أجمع الأولون والآخرون على اعجازه الا من لا حفل له من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق ، ثم ان فصاحه القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمزاولة ودرس وقائعها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق بها . وكل هذا يجعل الترخص فى هذه اللغة وأساليبها ضربا من الفساد والحال الخاصة فى فصاحة هذه اللغة ليست فى ألفاظها ولكن فى تركيب ألفاظها » .

١١ ــ القرآن الكريم

واذا كان القرآن هو المصدر الأول والمنبع الأصيل للاسلام وللفكر الاسلامى فقد حق أن نقول عنه انه ليس كتاب دين فحسب ، كما يقولون ، أو كتاب مواعظ كما يدعى الشعوبيون والتغريبيون ، ولكنه النبع الثرى الذى واكب الاسلام خلال ثلاثة وعشرين عاما وكان كماله ختاما لحياة الرسول واتماما للدين .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وانما هو منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة : أعظم مناهجه

العقيدة والشريعة والأخلاق ، فالاسلام ليس دينا فقط ، ولكنه دين ونظام حياة ، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والانسان عن الصلة بين الانسان والانسان وهو ينظمها جميعا ، ولقد حفظ الله القرآن من أن يطرأ عليه تحريف أو تغيير ، فهو الوثيقة الخالدة والمرجع الاسنى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون).

وقد أعطى القرآن العلوم كلها (دنيوية وأخروية) من عطائه ، وأعطى اللغة والفقه والتاريخ والحضارة والفن والسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية (١) .

وما من أمر يعرض للمسلمين من أمور حياتهم الا وجدوا له فى القرآن أصلا وطريقا **(ما فرطنا فى الكتاب من شىء)** وأصول العلوم كلها من القرآن ، علوم العقائد والعلوم الانسانية وعلوم الطبيعة والكيمياء ، ومع ذلك فهو ليس كتاب تاريخ ولا كتاب علم ولا كتاب فلك ولكنه كل ذلك جميعا ، فقد رسم الحق تبارك وتعالى فى القرآن « أصول المناهج » ووضع الخطوط العامة للفكر والحياة ، وترك للانسانية على المدى الطويل أن تشكل نفسها فى كل عصر على النحو الذى يناسبها داخل اطار الاسلام .

والحديث عن الاسلام يطول وله مكانه ، وأبرز ما يقال :

(١) راجع كتاب : القيم الأساسية للفكر الاسلامى .

ان الاسلام قد أعطى الانسانية منطلق النظرة العقلية والعلمية حين قال :

« قل هاتوا برهانكم » .

فدعا الى رفض كل ما ليس هناك برهان عليه ، وأنكر وزيف الأساطير والأوهام والخرافات التى عاش عليها الناس طويلا .

وبشهادة الذين عرفوا القرآن من الباحثين :

« ان القرآن حفظ التفاهم بين الشعوب الاسلامية وغيرها من الشعوب ، وحفظ اللغة العربية من أن تتمزق الى لهجات ، فقد استعصت اللغة العربية بفضله على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الشم الرواسى ، ولولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية ولما بقى التفاهم ميسورا مع فكر أربعة عشر قرنا ، بينما اللغات الآن فى العالم كله لا تستوعب الا فكر قرنين أو ثلاثة ، وخاصة لغات أوربا » .

يقول العلامة ايتان دينيه (الذى أسلم وتسمى ناصر الدين دينيه) : « لو عاد أصحاب الرسول اليوم الينا لكان ميسورا لهم أن يتفاهموا تمام التفاهم مع أهل اللغة العربية ، وهذا عكس ما يجده مثلا الفرنسيون اليوم مع أهل

القرن الخامس عشر الميلادى الذين هم أقرب الينا من عصر القرآن » .

١٢ ـ الشريعة الاسلامية

ولقد قدم القرآن الى الانسانية : أعظم عطاء ، وهو الشريعة الاسلامية .

ولسنا نقول رأينا كمسلمين فى الشريعة الاسلامية ولكنا ندع غيرنا يقول كلمة الحق ، يقول العلامة شيريل عميد كلية الحقوق بجامعة فينا :

« ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد اليها ، اذ انه رغم أميته فقد استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفى عام » .

ويقول (فمبرى) : « ان فقهكم واسع جدا الى درجة اننى أقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم » ويقول (جوتة) : « أية شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع محمد ، وان التشريع فى الغرب ناقص على الرغم من تقدمه ، ناقص بالنسبة للتعاليم الاسلامية ، واننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد الى ما وصل اليه محمد وسوف لا يتقدم عليه أحد » .

ويقول العلامة (سانتلانا) فى كتابه الفقه الاسلامى المطبوع فى تونس ١٨٩٩ : « ان فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل ان فيه ما يكفى الانسانية كلها » .

ولقد تأكدت هذه المعانى جميعا على نحو واضح حينما عقد مؤتمر لاهاى للقانون الدولى عام ١٩٣٧ وقرر المؤتمر بعد دراسة واسعة للشريعة الاسلامية :

أولا : اعتبار الشريعة الاسلامية مصدرا من مصادر التشريع الحديث .

ثانيا : ان الشريعة الاسلامية صالحة للتطور وتصلح ان تكون مصدرا عالميا للقانون .

ثالثا : ان التشريع الاسلامى تشريع قائم بذاته وليس مأخوذا من غيره .

١٣ — العروبة والاسلام

ولقد ترابطت العروبة والاسلام فى الفكر العربى الاسلامى ترابطا يحول دون تقبل أى نظرية وافدة تتنكر لهذا المعنى .

« فالعروبة جزء من الاسلام بل هى نتاج الاسلام ،

فالاسلام هو الرابطة التى جمعت العرب كلهم على ايمان واحد ولولا الاسلام لبقى العرب فى جزيرتهم قبائل متفرقة لا قدر لها فى تاريخ الحضارة الانسانية ، فللاسلام على العرب فضل توحيدهم وفضل إطلاقهم فى معارج الحضارة وفى الحياة الانسانية ، ان العرب توحدوا بالاسلام ، وان الاسلام جعل منهم قوة عالمية حاملة لواء الحضارة »(١) اذ هم قاعدة انطلاق الدعوة .

وقد شجب الاسلام الدعوة العنصرية القائمة على الدم ، والأنساب وصنع التفاضل بها ، يقول الفريد كانتول سميث : « الاسلام هو الذى خرج بالعرب من ديارهم الى العالم ، فالاسلام سبب عظمة العرب الدنيوية ، والعرب هم الذين نشروا الإسلام فى بقاع الأرض » .

والعرب بالاسلام كل شىء والعرب بدون الاسلام لا شىء ، واذا ذل العرب ذل الاسلام ، وقد وردت احدى وأربعون آية كريمة فى القرآن عن صلة العرب بالاسلام ، والعرب كما قال عمر بن الخطاب : هم سادة الاسلام .

ولقد كانت « العروبة الحنيفية » هى مهاد الرسالات السماوية منذ فجر التاريخ وكانت دعوة ابراهيم هى مفهوم

---

(١) عمر فروخ : العروبة الفصحى .

السماء الذى جاء به الاسلام مجددا والذى كان محمد صلى الله عليه وسلم ختامه ، ومن هنا فقد كانت دائرة العروبة بقيمها الجغرافية والتاريخية مرتبطة بالاسلام دينا ومنهج حياة ، ومنه انطلقت الرسالة وحملت الرسالة الى العالمين لتبليغها ، وما تزال العروبة منذ أوائل العصر الحديث تتجدد لتحمل رسالة الاسلام مرة أخرى الى الانسانية ، وان التحديات التى تواجهها اليوم فى أعمق أعماقها هى دعوة الباطل والوثنية التى حطمها الاسلام منذ بزوغه ، وما يزال قادرا على تحطيمها واعلاء كلمة الحق والتوحيد الخالص(١) .

١٤ ــ التاريخ الاسلامى

كشف الاسلام صفحة فى التاريخ الانسانى لا تزال تهز النفوس وتعجز المعللين والباحثين ، فان سرعة انتشار الاسلام واستطاعته فى خلال فترة تقل عن قرن من الزمان تحقيق نصر يبسط به جناحيه من حدود الصين الى حدود فرنسا ما زال معجزا للباحثين بمقاييس المذاهب المادية وما زال عجبا فى تقدير الناظرين أن تنتصر الجيوش الاسلامية القليلة العدد على الجيوش الضخمة ، وقد جاوز هؤلاء جميعا تقدير قيمة العقيدة التى طرحها الاسلام فى العالمين ومدى اعجازها الذى يفوق كل المقاييس والمقدرات .

---

(١) راجع كتابنا : العروبة والاسلام .

ولا شك أن للاسلام تفسيره الذاتى الخالص للتاريخ والذى يختلف اختلافا واضحا عن تفسير المذاهب والأمم والدعوات الأخرى .

وقد صور هذا الفرد كانتول سميث حين قال : « ان المسلم يحس احساسا جادا بالتاريخ ، انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ويحاولون دائما ان يصوغوا واقع الأرض فى اطاره ، ومن ثم فهو دائما يعيش كل عمل فردى أو اجتماعى وكل شعور فردى أو اجتماعى بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق » .

وعبرة التاريخ الاسلامى هى أن المسلمين حملوا معهم الى كل مكان : الحق والعدل ، وكانوا قادرين على الاندماج فى المجتمعات والتأثير فيها وبلورتها ، كما كانوا متفتحين ازاء الثقافات والفلسفات والحضارات السابقة لهم والمعاصرة ، يأخذون منها ويدعون ، على قاعدة فكرهم ووفق مقوماتهم الأصيلة التى لم يتخلوا عنها ، سواء فى مرحلة البناء حين واجهوا حضارات مختلفة او فى مرحلة المقاومة حين هاجمهم التتار والصليبيون والفرنجة .

ولم يكن تاريخ الاسلام هو تاريخ العظماء والملوك

والقادة ، وانما كان تاريخ الجماعة الاسلامية كلها ولم ينظروا الى التاريخ نظرا صوفيا أو قدسيا ، وقد كانت حركته ترمي دائما الى المحافظة على وحدة الفكر وسلامة القيم الانسانية وكان مفهوم التقدم فى التاريخ الاسلامى ولا يزال انه قوة دافعة الى المستقبل ولكنه يعتمد على أساس ثابت وواقع متحرك .

وقد طبعت روح الايمان والاقدام والاستشهاد صفحات التاريخ الاسلامى ، ولم يكن خصوم الاسلام صادقين حين أذاعوا دعوى انتشار الاسلام بالسيف .

والحق أن الاسلام لم يرفع سيفا الا حين حيل بينه وبين الكلمة ، وعندما تعرض وجوده للخطر ، وذلك فى سبيل مقاومة المتآمرين عليه ، وقد وضحت هذه الحقيقة للباحثين المنصفين اليوم فالمسلمون لم يحاربوا الا بعد أن استنفدوا كل وسائل الدعوة السلمية وأحسوا بأن خطرا يتجمع لاقتلاعهم .

وقد أشار تريتون الى فشل نظريات الفكر المادى فى تفسير تاريخ الاسلام فقال : « اذا صح فى العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحا فى تعليل معظم الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها فان هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع

رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا فى الصلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد ، الا وهو الاسلام » .

ومن أهم ما تجدر الاشارة اليه فى هذا المجال أن التاريخ الاسلامى لا يفسر الا على أساس « التصور الاسلامى » والنظرة الاسلامية للحضارة الانسانية ، أما محاولة تفسيره على مذاهب الغرب فان ذلك من شأنه أن يؤدى الى نتائج خاطئة . ذلك أن المنهج الغربى فى مجموعه يقوم على أساس من تجزئة الكون والطبيعة والفصل بين العلم والدين . ومن هنا يكون تطبيقه فى قضايا الأدب أو التاريخ أو الأجناس والأمم أو فهم الاسلام كدين مصدر اضطراب كبير . وقد أخطأ جميع الذين اتخذوه أساسا لهم فى أبحاثهم فى هذه المجالات وانكشف عوار نظرياتهم بعد قليل . أما النظرة الاسلامية وروح الحضارة الاسلامية فتقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، والاسلام هو وحده الذى يحقق هذا المنهج ويختلف به عن جميع مناهج الفكر فى الشرق والغرب(١) .

وقد أكد هذا المعنى العلامة محمد أسد (ليوبولد فايس) حين قال : « ان وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال

---

(١) راجع بحثنا عن التاريخ ، وكتابات أحمد نصيف الجناينى .

لوجهة النظر الغربية الآلية ، فقد نفى الغرب فكرة الثبات على الاطلاق واستعاض عنها بفكرة التطور على الاطلاق أما الاسلام فيجمعهما « الثبات والتطور » وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم والأصول التصور الذى ترجع اليه القيم فكرة تناقض الأصل الواضح فى بناء الكون وفى بناء الفطرة الانسانية ، فمادة الكون ثابتة الماهية تتحرك حول محور ثابت لا يتغير مطلقا وقيمة وجود تصـــور ثابت للمقومات والقيم ضرورى جدا ووجه الضرورة فيه هو ضبط الحركة البشرية » .

١٥ ــ التحديات فى وجه الاسلام

ونحن الآن فى هـــذه المرحلة الدقيقة من حيـــاة العرب والاسلام يجب أن نذكر التحديات التى تواجه الفكر الاسلامى والثقافة العربية . هـــذه التحديات التى يقف من ورائها الاستعمار فى مختلف صوره وكذا الصهيونية وتقتضى منا مقاومتها والتنبه لهـــا ، واليقظـــة الكاملة ازاء مخططات المتربصين ، وذلك بتفنيدها والكشف عن اكاذيبها وتزييف شبهاتها .

ولقد كان كفاح المفكرين المسلمين على مـــدى تاريخ الاسلام قائما فى سبيل تحرير الفـــكر الاسلامى من هيمنة الفلسفات الوافدة عليه ســـواء منها اليونانية أو الفارسية القديمة .

وكانت اكبر دعوات الاصلاح والتجديد تستهدف تصحيح المفاهيم ومحاربة السيطرة الثقافية التى تفرضـــها القوى الأجنبية .

ولقد كان الفكر الاسلامى قادرا دوما على المواجهـــة والمقاومة ، فلم يستسلم للنظرية الوافدة مطلقا ، بل قاومها طويلا ، واعلن وجهة نظره وكشف عن ذاتيته الخاصة .

وكل ما يشغل بال أعداء الفكر الاسلامى الآن هو انشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الاسلامية بل والشرقية ايضا وابعاد العناصر التى تمثل الثقافة الاسلامية عن مراكز التوجيه ، وبذلك تستطيع قوى النفوذ الأجنبى تحقيق أهدافها دون مواجهة للقيم الاسلامية أو دعاة الاسلام .

وسوف تكون رسالتنا هى رسالة الأسلاف فى الرفض بالسماح لشخصية الاســـلام الحضارية أن تذوب وتتلاشى فى اى شخصية حضارية اخرى .

وسيظل الاســـلام هو أكبر مقوم فى فكرنا وحضارتنا ومجتمعنا ، لأنه بطبيعته اقرب الى الفطرة الانسانية وأبعد عن التعصب ، وآمن بالخلق والتوحيد من العثار ، وأقدر على اعطاء النفس البشرية حاجتها دون اغراقها فى الالحاد والاباحية ، غير اننا فى حاجة مستمرة ودائمة للعمل على

تصحيح المفاهيم والكشف عن الفوارق والخلافات بين مفاهيم الفكر الاسلامى وحضارته وبين الفكر الوافد الذى يدخل فيه نفوذ الاستعمار بأهدافه الرامية الى خلق ولاء وتبعية فكرية وثقافية بين العرب والمسلمين وبين الصهيونية والاستعمار .

ولذلك فان علينا أن نذكر دائما ان هدف التغريب والغزو الثقافى هو الحيلولة دون التقاء العرب والمسلمين على قيمهم وتطبيقها فى مجتمعهم ، والعمل الدائم على منع قيام التقاء فكرى شامل ، أو تذويب الخلافات وصهر العناصر فى سبيل وحدة فكر عربية اسلامية وابقاء سيادة الفكر الغربى والحضارة الغربية .

ومن هنا فقد علا صوت الدعوة الى الربط بين الأصالة والتجديد على النحو الذى يحفظ ذاتية العرب والمسلمين وشخصيتهم وكيانهم ومزاجهم النفسى دون أن ينصهر فى بوتقة العالمية أو الأممية .

ذلك ان بين الماضى والحاضر والمستقبل فى مفهوم الفكر الاسلامى ترابطا وتكاملا لا سبيل الى تجزئته ، وحيث أنه من العسير تصور الثقافة العربية منفصلة عن الفكر الاسلامى الذى يعد مصدرها الرئيسى والأصيل ، فقد طبع الاسلام الثقافة العربية فى الماضى ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها بطابعه الى أمد غير محدود .

ولقد رفض الفكر الاسلامى مبدأ التقليد ومبدأ التبعية وأكد علماء المسلمين ان التقليد يمنع من الأصالة ، وان المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية ، ولاشك ان خطر التقليد ينطبق على الماضى والوافد جميعا . ولقد كان من أبرز ما يتميز به الفكر الاسلامى هو قدرته الدائبة على أن يأخذ حاجته من اى ثقافة تفرض على أمته ويرد الباقى ، فهو لا يأخذ الا ما يزيده قوة وما يتفق مع مقوماته الأساسية .

وهو قادر على أن يحيل ما يأخذ الى كيانه ويشكله داخل ارادته . ولذلك فان علينا لكى نحتفظ بأصالتنا مع التجديد أن نبقى على رسوخنا بالنسبة لنقطتين : مفهوم التقدم ، ومفهوم سلامة المنابع .

وعلينا أن نؤمن بأن لنا شخصية ولنا رسالة الى الانسانية .

ولاشك أن نقل تعاليم الاسلام من المسجد الى مجرى الحياة العامة هو الذى يعطى شخصيتنا قوة دافعة ، فلنجعل الانتقال الى مجال التطبيق واعطاء تعاليم الاسلام صيغة التنفيذ أول خطانا من أجل تحقيق حتمية التاريخ التى تعلى من شأن الحق وتزهق الباطل مهما علا واستطال . والمسلمون مدعوون أن يقدموا للانسانية جوهر فكرهم ليهزم الفكر الوثنى المادى الذى تشيعه الصهيونية وغيرها من الاتجاهات المذهبية وتدفعه وتدافع عنه .

ان للاسلام ذاتيته الخاصة ، ولا ريب أن فترة الضعف التى مرت بالعالم الاسلامى لا تمثل حقيقة الاسلام ، فالاسلام فى جوهره يعطى الأمم والأفراد كل عوامل القوة والحياة والنماء ، ولقد كانت تجربته الأولى مضيئة مشرقة ، والاسلام صالح لكل زمان ومكان وهو ليس تراثا موروثا ولكنه الدعوة الخالدة من الحق تبارك وتعالى الى الناس جميعا .

ان الذين يردون ركود المسلمين الى الاسلام نفسه يخطئون أفدح الخطأ ، فان الاسلام براء من كل عناصر التأخر والركود ، ولا ريب أن الاضمحلال والضعف الذى مر بالمسلمين كان عن سبب واحد هو مصدر كل الأسباب ، ذلك هو انفصال المسلمين عن أصول الاسلام ومقوماته واندفاعهم وراء فكر غير فكرهم ومفاهيم غير مفاهيمهم ، أو انحرافهم عن صراطه المستقيم .

غير أن تاريخ الاسلام لم يخل قط فى جميع مراحله ، حتى فى أشد الظروف حلكة وظلاما من المصلحين الأحرار والرواد النوابغ ذوى العقول النيرة والهمم الصادقة ، الذين توالوا ، عصرا بعد عصر ، يصححون المفاهيم ، ويلتمسون المنابع الأولى والمصادر الأصيلة من القرآن والسنة الصحيحة ويرفعون أعلام الهدى والرشاد .

ولقد كان للتاريخ الاسلامى مواقف حاسمة وانتفاضات

قوية ، اسقط خلالها الفكر الاسلامى كل ما دخل الى جوهره من تقاليد غريبة عنه ، ومن طبيعة الاسلام تلك القدرة على رفض الدخيل ، قدرة الجسم الانسانى على رفض كل جسم غريب .

ولا ريب أن انبعاث المسلمين دوما ، وانبعاث كل الأمم ، مستمد من فكرها ومقوماتها ، وان الطريق الى حفظ الكيان هو حماية العقائد والأصول التى تقوم عليها الأخلاق من الشبه والشكوك ، ومصدر هذه الشكوك هى الفلسفة المادية التى يحمل لواءها الاستعمار والصهيونية من أجل توهين عقائد المسلمين والعرب .

ولا ريب أن أصالة الذاتية فى مواجهة خطر محو الذاتية هى قضية اليوم الكبرى ، وان أخطر الأخطار هو الفصل بين العلم والأخلاق أو المباعدة بين العقل والروح ، وتلك هى أزمة المجتمع الانسانى المعاصر ومصدر القلق والغربة التى يعانيها بعض الشباب ممن فقدوا صلتهم بمقومات دينهم وفكرهم .

ان أزمة القلق والضياع التى يعانيها الشباب المثقف انما تعود الى مصدر واحد :

هو أنه ترك قيمه الأصيلة وسبح بعيدا عن الشاطىء

بغير طوق النجاة . وكل ما يصادم الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية لا يدوم ، وان الانحراف ليس طبيعة ولا كذلك الالحاد ، وانما هو مرض ، وان النفس الانسانية قادرة أن تعود كرة أخرى الى الخير وان تصحح مسارها وكذلك الأمم .

ان فكرنا العربى الاسلامى لا يقر الفصل بين القيم ، وهو لا يفصل الأخلاق عن الأدب أو السياسة او الاجتماع . وهو فى هذا يختلف عن الثقافات الأخرى ، التى تؤمن بالتجزئة والفصل بين القيم .

ولا ريب أن مصدر أزمة الحضارة اليوم هو هذا الفصل بين القيم ، وقد اكد هذا المعنى عشرات من الباحثين ومنهم « جود » فى كتابه عن المدنية الحديثة حيث يقول : « ان المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق ، ومنذ عصر النهضة ظل العلم فى ارتقاء والأخلاق فى انحطاط » .

ورسالة الاسلام فى هذا العصر للانسانية كلها ولأهله أولا هى : التوفيق بين العلم والأخلاق وبين الدنيا والآخرة وبين الروح والمادة . وانه لابد من تحديد خط دقيق يفصل بين الاقتباس والتبعية ، وبين التجديد والذوبان ، ولابد من تحديد المواقف فى مصطلحات التربية والتعليم والفلسفة والعلم .

فالعلم عالمى بطبيعته ، وهو ملك للانسانية كلها .

ولكن الثقافة قومية ، والتربية قومية ، وان الدعوة الى عالمية الثقافة والتربية انما تستهدف القضاء على الأمم ذات الرسالات الكبرى وهى لم تخرج بعد من مراحل الضعف والتكامل .

واذا كنا نحارب السيطرة الثقافية التى فرضتها القوى الأجنبية فان ذلك لا ينفى الانفتاح على كل الثقافات ودراستها والأخذ منها بما يزيد شخصيتنا قوة ، ويدفعنا الى الأمام ، ويحفظ لنا ذاتيتنا وشخصيتنا .

ان وحدة الثقافة العالمية عبارة خلابة ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية ، وهى محاولة لاستيعاب كل ثقافات الأمم وعقائدها فى بوتقة الثقافة السائدة المسيطرة بالنفوذ الاستعمارى .

ان من أكبر مهامنا بناء الشخصية العربية الاسلامية على منهج القرآن ، بالنص (القرآن والسنة) والتاريخ والقدوة ، وترقية النفس الانسانية وتحريرها من قيود الشهوات بحيث تصبح ربانية الهدف ، فالنفوس التى صاغها الاسلام كانت قادرة على المقاومة للغاصب وتأكيد الحق ، وبذل التضحية الخالصة ، والعمل فى اتجاه الكمال الانسانى .

لا سبيل الى اقامة وحدة فكر الا بتوحيد التربية والتعليم والثقافة ، ان وحدة التعليم هى أساس وحدة الفكر ووحدة الأمة .

علينا أن نوقظ مقوماتنا الأساسية التى عرفها التاريخ الاسلامى على طول مسيرته :

أولا — القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان .

ثانيا — القدرة على مقاومة كل مضاد لمفاهيمنا وقيمنا .

ثالثا — حماية مقوماتنا وارضنا .

رابعا — تأصيل القوة المدخرة حتى فى اشد فترات الضعف وابتعاثها .

ان يقظة الاسلام فى هذه المرحلة بعد أن كتب المسلمون كثيرا وحرروا مفاهيم الاسلام انما يتمثل فى كلمة واحدة هى :

تحويل الاسلام الى الايمان وتحويل الكلمة الى سلوك .

١٦ — وثائق خطيرة

ظهرت فى السنوات الأخيرة وثائق ذات دلالات تكشف أبعاد الخطر الذى يواجهه العرب والمسلمون من خلال

مخططات رسمت منذ سنوات بعيدة وظلت فى طى الكتمان حتى أفلتت منذ قريب وكان حقا علينا أن نراجعها بدقة وأن نقف أمامها وقفة جادة وواعية . والشباب المثقف مدعو الى ذلك بحكم المسئولية التى ستلقى عليه فى السنوات القادمة (١) وفى مقدمة هذه الوثائق بروتوكولات حكماء صهيون التى عرفت عام ١٩٠٢ ولم تصل الى العالم الاسلامى قبل عام ١٩٤٨ بعد أن حجبها النفوذ الفكرى الغربى وهى تدور حول الأهداف والوسائل التى رسمتها الصهيونية العالمية للسيطرة العالمية والتى جعلت من قيام اسرائيل منطلقا لها .

* * *

وقد كشفت هذه الوثائق حقائق كثيرة تتعلق بتاريخ الاسلام المعاصر والحديث وخاصة فيما يتعلق بالرابطة بين العرب والدولة العثمانية وموقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية العالمية وكيف اقتلعته بعد أن أعلن أصراره على معارضة مشروعها فى السيطرة على فلسطين. وهذا أيضا من الأمور الخطيرة التى حجبت طويلا عن العرب والمسلمين وتكشف أبعد من هذا علاقة الماسونية بالصهيونية وهى النحلة التى خدعت الكثيرين ، ويكشف موقف الصهيونية من الحرب الباردة بين المعسكرين العالميين ومطامعهم فى تحطيم المقومات الأخلاقية والاجتماعية للعالم كله ولأصحاب الأديان ودورهم

(١) راجع كتابنا : العروبة والاسلام .

من وراء نظريات دارون ، ونيتشة ، وفرويد ، وغيرهم ومن وراء المذاهب المادية والوجودية والملحدة والاباحية جميعا . كما تكشف هذه الوثائق عن محاولة تحطيم وحدة العرب الجامعة بين افريقيا وآسيا ، وتبدو هذه المؤامرة فيما يعرف الآن بتقرير كامل بترمان الذى عقد له مؤتمر من الاستعماريين عام ١٩٠٧ وقرر اقامة حاجز بشرى بين المسلمين والعرب فى افريقيا وآسيا وكان ذلك تمهيدا للمخطط الصهيونى فى فلسطين وهناك عشرات من الوثائق لابد أن يطالعها الشباب المثقف ليعرف أبعاد الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية التى نحياها والأخطار التى تهدد أمتنا .

وهناك الى جانب ذلك عشرات من الشبهات والتحديات والأفكار الزائفة التى تطرح وتكرر وتعدل وتعاد صياغتها وتظهر فى كتب أنيقة ومطبوعات براقة ، وتحت أسماء لامعة ، مما نحن فى حاجة الى تفهمه ووضوح الرؤية بالنسبة له ، ومما يدعونا الى اعلاء نظرية عرفها الفكر العربى الاسلامى قديما وهى :

١ — النظر الى ما وراء النصوص والكلمات .

٢ — قولوا من كتب أولا ، وهل هذا الكاتب مجروح أو مبطل أو تابع .

٣ — لقد دعانا الاسلام الى التفرقة بين المعارف

الجوهرية والمعارف غير الجوهرية والنفاذ الى الزيف والصحيح ، فلا تخدعنا المقدمات ولا العبارات الناعمة التى تخفى وراءها السم الزعاف ولنحذر من القول بأن الاسلام روحى فالاسلام انسانى جامع بين الروح والمادة ، ولنحذر من كلمة علوم دينية وعلوم دنيوية انما هناك علوم عقلية وعلوم نفسية وروحية .

وان هناك شخصيات أربعا تتراءى من خلال كتابات التغريب ليست بالجزم واليقين هى شخصيتنا ولا واحدة منها : اليونانية الاغريقية ، والفرعونية الوثنية ، والجاهلية العربية ، والأوربية الغربية .

وليس فى الاسلام رجل دين بمفهوم كلمة Religienx الفرنسية ، تلك معناها أنه لا يصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس ، أما « عالم الدين » فى الاسلام وليس رجل الدين فقد كان دائما من أئمة شراح القوانين المدنية ، ويرجع ذلك الى مفهوم الاسلام نفسه ، الذى هو دين ونظام حياة والذى يدعو أبناءه جميعا الى الاندماج فى المجتمع والأخذ من منافع الدنيا بنصيب فليس فى الاسلام طبقة معينة تدعى رجال دين لهم فى علاقتهم بالاسلام حقوق ليست لغيرهم وليس فى مفهوم الاسلام حكومة « ثيوقراطية » .

— والتقدم فى مفهوم الاسلام : تقدم مادى ومعنوى معا .

وليس فى القدر الاسلامى ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدى الى فتور همته .

ومفهوم التجديد فى الاسلام هو مفهوم التجديد فى العلم : لا يمكن أن يقوم الا على أساس تعاون الماضى والحاضر ، وبناء العقل فى حاضره على ما أسس العقل فى ماضيه (١) ونحن نرى أن هناك تقاربا واضحا بين الفكر المادى والفكر الوثنى جميعا وقريب منها مفاهيم الانحراف التى تعلى الروح وتنكر الجهاد وتدعو الى السلام الكاذب مما ينسب الى تولستوى وغيره مما لا يقره الاسلام .

ان كلمة القرون الوسطى المظلمة لا تمثلنا ولكنها تمثل أوربا والغرب ، حين سقطت روما فى القرن الرابع وعادت النهضة فى القرن الرابع عشر ، أما نحن فقد قدمنا الضياء للانسانية والعالم كله منذ بزوغ الاسلام فى القرن السادس خلال الف سنة كاملة ، ان القرون الوسطى تمثل أوربا يقول دكتور لويجى رينالدى : قام المسلمون والعرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى باعادة نور الحضارة والمدنية الذى كان قد انطفأ فى جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية .

ومن الحق أن يقال أيضا أن يقظة العالم الاسلامى

(١) عن المرحوم العلامة الدكتور محمد أحمد الغمراوى.

لم تكن بفضل الغرب ، فقد بدأت اليقظة من أعماقها وان هذه اليقظة بدأت منذ وقت طويل سابق للحملة الفرنسية وقد بدأت من قلب الجزيرة العربية ومن الأزهر الشريف قبل وصول الفرنسيين بأكثر من خمسين عاما ومعنى هذا أن يقظة الفكر الاسلامى العربى قد انبعثت من أعماقه وصدرت عن ناموس لا يتخلف فى الاسلام هو التجدد من داخل الكيان الاسلامى نفسه .

وبعــد فان أمامى حقائق ثلاثا أقدمها للشباب المثقف فى مطالع القرن الخامس عشر كاشفا عن رسالة الاسلام للانسانية :

الأولى : تؤكد أن المسلمين قادرون على استعادة دورهم وتقديم فكرهم للانسانية ، يقول برناردشو :

« فى المستقبل العاجل عندما يريد الرجال المفكرون أن يلجأوا الى دين يحمى الفضيلة ويقى المجتمع ، ويكون سببا للحياة السعيدة فى البشر فسيجدون الاسلام هو الدين الوحيد الذى يضمن لهم التقدم والنجاح والاسلام دين حرية لا دين استعباد وقد قرر أخوة الناس منذ الف وثلاثمائة وخمسين عاما ، وهو المبدأ الذى لم يعرف عند الروم السابقين ولا عند الأوربيين والأمريكيين الحاضرين » .

الثانى : يؤكد ثبات الاسلام فى كل ارض يدخلها .

يقول الين برودريك :

« ان الاسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذى لم يضعف فى الأرض التى نبت فيها ويلاحظ انه عندما يفتح الدين الاسلامى بلدا ما يسيطر عليها كلية فانه لم يحدث ليومنا هذا ان خرج منها » .

الثالث : يؤكد قدرة العرب على قيادة النهضة الاسلامية .

يقول روم لاندو :

« لا يوجد سبب على وجه الاطلاق يبرر الزعم أن العربى فقد الصفات التى مكنت أجداده من ان يقيموا حضارتهم العظيمة فهو لا يزال يملك تلك الرجولة والمروءة وذلك الاستطلاع العقلى الحاد وذلك الخيال المبدع ولا يستطيع أى انسان أن يعيش بين العرب ولا يتأثر بانسانيتهم التى تعمر قلوبهم وكرمهم » .

تلك صورة فكرنا وشخصية أمتنا فى نظر بعض المنصفين ولكنا يجب أن نقرر أن الصهيونية العالمية والاستعمار تعمل

من أجل تدمير ذاتية هذه الأمة ومقوماتها التى تتمثل فى اصالة فكرها المستمد من القرآن ، ومن أجل هذا تكون رسالة المثقفين والباحثين تحرير المفاهيم وتصحيح الأخطاء ودحض الشبهات والالحاح الدائم بالكلمة على تذكير أمتنا بشخصيتها وذاتية فكرها التى يجب ان تبقى قادرة وصامدة وأن تكون على صلة لا تنقطع بمصادرها الأولى ومنابعها الأصيلة فهى وحدها القوة القادرة على مواجهة الأخطار ودفعها وتحرير الأرض والفكر معا .

أنور الجندى

* * *

محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٠/٥٣١٢
الترقيم الدولى ٣ ــ ٥٨ ــ ٧٣٢٨ ــ ٩٧٧